

الكاتب الطوارقي محمد بن خواد: أنا كائن الصحراء

أقيمت في مصر والعراق وطفت في مدن الشمال الأفريقي لأتعرف على النصوص الكبرى



ولد خواد بمنطقة إيسر بالنيجر. هناك سبقت تعليمه الأول على طريقة الرحل، بعيدا عن العالم الأكاديمي، ليستطيع خلق طريقته الخاصة في التفكير، وفي الحوار مع الآخر، مع حرصه على الانفتاح على الثقافة العربية وغيرها من الثقافات الإنسانية. أصدر خواد، الذي يعيش متنقلا بين الصحراء وفرنسا، عددا من الأعمال الشعرية، التي تحمل أثر الخوف من زوال شعب بكامله وهو شعب الطوارق. إذ سيجعل من الترحال فضاءه الشعري والفكري، باحثا في نفس الوقت عن إنتاج قصيدة محصنة بمعرفتها الخاصة. اختار خواد أن يبقى وفيًا للغة الطارقية، وهي التي يكتب بها كل نصوصه الإبداعية. ولعلها تلك طريقته للانتصار للغة قد تبدو مهددة في خضم تجاذب لغات وثقافات العالم الكبرى. من أعمال خواد "قافلة العيش" و"أغاني العطش والديه" و"الحميات السبع والقمر"، بالإضافة إلى نص "وصية البدوي" الذي ترجمه أدونيس.



حسن الوزاني
كاتب مغربي

منحتني تربيتي المنفتحة في الصحراء حرية التفكير (غرافيك «الجديد»)

نفسه الذي كُتب له أن يرحل دائما نحو أمكنة غير ملموسة.

● **الجديد:** تحضر الرحلة كثيرا في حياتك وفي نصوصك الشعرية وفي حياة الطوارق بشكل عام. كيف يمكن للإنسان أن يكون رحالا اليوم في اللحظة التي صارت تحاصره الحدود؟

■ **محمد بن خواد:** الأمر بسيط. يجب النظر إلى العالم كحزمة، حيث يمكن وضع الكون والفضاءات والسدول والشعوب ومختلف الديانسات داخلها. وكما يفعل المتوسل، يمكننا وضع الحزمة فوق أكتافنا، وأن نوهم أنفسنا بأننا نحمل كل تفاصيل الكون، بما فيها الثقافات والجغرافيات والمسافات والاختلافات والوجوه والرجال والنساء والديانات والأحكام المسبقة والصراعات والتشجعات. وعند ذلك، يمكننا أن نعتبر الفضاءات التي تنبثق منها كل هذه التفاصيل ملكا لنا، وأن نجعل من هذه الفضاءات فضاء لنا جميعا.

وبالتالي، أن يكون الإنسان رحالا في الوقت الراهن فيعني ذلك أن يمتلك القدرة على أن يكون في كل مكان انطلاقا من مقامه، وأن يرى في كل وجه وفي كل ثقافة وفي كل بلد وفي غيرها من التفاصيل جزءا من كينونته.

وبالنسبة لي، المشكل لا يكمن في الوقت الراهن، في أن أعرف كيف أكون رحالا، بل في الطريقة التي تمكنني من أصير أكثر من ذلك. فحين أكون رحالا، قد يؤول بي المال إلى الاستقرار والتوقف عن الترحال، أو قد أصير سميئا بفعل الإكثار من الأكل. ولأن حياة الترحال صارت مهددة بحكم تزايد الحدود بين الدول، ومعها صعوبة التنقل، فقد صار من الضروري تجاوز هذه الحياة إلى مستوى تملك كل شيء، كما لو أنه جزء من كينونتي. وذلك بشكل يتطوّر معه وجود الغريب والآخر. كما تصير، وفق نفس المنطق، كل الثقافات باختلافاتها هي ثقافتني. وبالتالي لن أرفض مع هذا الوضع إلا ما يعيق ذهابي نحو الآخر. ولا يكمن هدفي في تملكي للآخر ولا في أن يملكني الآخر، بل فقط في أن أقوده نحوحي لكي نتمشى جنبا إلى جنب. لأن ما نبحت عنه سويا هو الأفق الذي علينا أن نؤسسه جميعا، وهي أيضا الحياة التي يجب أن تكون منحرفة من الجمارك والسياسات والحدود. وعلينا أن نامل بوجود عالم آخر. وإذا كان هذا العالم غير موجود، فإن قوة هذا الأمل هي بالضبط التي تمكننا من الاستمرار في الحياة. وأظن أن الذي يملك هذه القوة لا يمكنه أن يصاب أبدا بخيبة أمل. وإن كنا جميعا نتنابنا حالات الكآبة.

المبالغة في تقدير قوة التيارات التي تسحقنا، والتي لها أيضا حدودها وهشاشتها. وبالتالي، يجب أن ننظر إلى الأتسياء، وأن ننصت إلى أصواتها، وذلك دون أن نجعل من الطوارق شعبا مهمشا، خارج العالم. بل يجب علينا أن نحافظ على نغمات أصواته حتى لو لم نعد نستطيع سماعها، دون أن نتوهم بأن الأصوات هي ملك لنا وحدنا فقط، وأيضا دون أن ننكفئ على أنفسنا.

وبالنسبة لي، لا يمكنني أن أكون الآخر ولا أن أحييه، ولا أن أكرهه، بمعزل عن هويتي كطارقي. وبشكل مختزل، أن أكون طارقيا اليوم يعني أن أفتح هويتي أمام فضاءات وأفاق وعوالم أوسع، وأن أفهم جيدا محيطي وأستوعب منطقتي، دون أن أفقد قوتي الداخلية، وأن انتمني إلى العالم دون أن يمحوني، وأن أواجه العاصفة دون أن أتيسه داخلها. ويمكنني أن أكون الآخر. ولكن يهمني أيضا أن أحافظ على هويتي التي لا تكفي بما يمكن أن اكتسبه عبر شبكة العلاقات الاجتماعية وإغراءات الهويات الأخرى.

وبصيغة أخرى، أن أكون طارقيا اليوم يعني أن أمتلك القدرة على أن أعيش مطوقا بالدايرة التي تهيمن على العالم، وأن أحتفظ في نفس الوقت بمركزي الخاص، حتى لو اقتضى الأمر رسمه عبر أحلامنا.

الصحراء جسد هارب

● **الجديد:** "الصحراء ليست مرآة، إنها بالأحرى جسد هارب يتمظهر عبر تجلياته اللامتناهية، يثور وينطفئ، ويولد من جديد، خارج الزمن والفضاء، كما سبق لك أن كتبت. كيف يمكن للصحراء أن تملك كل هذه الأبعاد؟

■ **محمد بن خواد:** حينما يكون أحد ما قد وُلد في الصحراء، أو عاش فيها، أو رُوّض الصحراء أو روضته الصحراء، يمكنه أن يتمثلها عبر أشكالها المتعددة، إنها جسد. إنها أيضا مادة تخفي وتتحرك وترحل وتثور. كما أن الصحراء مثل الطقس بتغيراته التي لا تنتهي. كما أنها تعكس حالاتنا النفسية المتعددة، بل إن الصحراء تملك القدرة أيضا على تغيير هذه الحالات والتأثير فيها. أي أبعاد الصحراء التي يمكنني لعل البعد الأقرب إلينا، نحن الذين نعيش في الصحراء، هو البعد غير المتناهي، الذي تتعدد أوجهه وصفاته، والذي يذهب ويعود كأنفس. إنه البعد



ببساطة، لم أكن أومن به، وهو الأمر الذي ساتجاوزه مع توالي السنين.

● **الجديد:** أنت أحد شعراء جيل التسعينات. كيف تتمثل خصوصيات جيلك الأدبي وطبيعة علاقته بالجيل الجديد؟

■ **محمد بن خواد:** أظن أن أغلب شعراء جيلي كانوا يبدون كثيرا من الانفتاح إزاء كل التجارب الشعرية بمعزل، سواء عن لغاتها أو انتمائها الجغرافي أو جانبها الجمالي. إذ أنهم كانوا يعون بكون ما يميز القصيدة هو بالضبط ما يحررها من اللغات. وبذلك، كان التيار السائد حينها يقوم على تحرير القصيدة ومعها الشاعر أيضا، بالرغم من وجود جمارك الأدب: غير أن هذا الأمر سترجع مع الأجيال الجديدة. إذ أن الفضاء الذي كنا نحصر على فتحه أمام القصيدة تم استبداله بالفضاء الإلكتروني وبالعالم النت الأزرق، ولم يعد يُطرح سؤال توسيع فضاء العاطفة والروح، وبالنسبة لي، لست متيقنا من قدرة الجيل الجديد على قطع المسار الطويل الذي يحرر القصيدة من النماذج والأشكال.

التحدث بالطارقة

● **الجديد:** كنت قد صرّحت في حوار لك مع الروائية أميتا حيدرة قائلا "أنا أتحدث عن الحياة اليومية للطوارق المحاصرين بين خمس دول. البقاء هناك يعني اللجوء. أما الرحيل فيعني المنفى. وفي كلا الحالتين، يبدو الأمر صعبا. إنها حياة الطوارق". ما الذي يعنيه أن تكون طارقيا اليوم؟

■ **محمد بن خواد:** إنه وضع صعب للغاية، وهو وضع يعيشه عدد من الطوارق، والذين صاروا يعتبرون التحدث باللغة الطارقية عبئا ثقيلًا. وحينما نستعمل كلمة "ثقيل" في لغتنا فنعني بها الشيء الثقيل جدا. ورغم ذلك، هناك شكل من أشكال الوعي الذي يستلزم من الجميع عدم بيع أنفسهم. إنه نفس الوعي الذي يقتضي منا أيضا أن نحافظ على موقعنا بين عدد من القوى والعديد من الضغوطات، وأن نتقف صامدين فوق قمة الأمواج، وإن كان ذلك صعبا. ورغم ذلك، أظن أن الأمر سهل. إذ يقتضي ذلك فحص ما يحدث، وفهم جميع القوى المؤثرة والتيارات الصاعدة والنازلة. كما يقتضي ذلك منا رسم فضائنا الخاص داخل هذه الأوضاع، وذلك دون أن نفقد نواتنا الهشة ودون

الفلسفة أو علم النفس أو الأدب أو علم النبات أو غيرها من المجالات. كما كانت لدينا حلقات صوفية، حيث كنا ندرس النظريات القديمة والحديثة المتعلقة بالفضاء الصوفي، سواء بشمال أفريقيا أو بالشرق الأوسط. كما كانت شبكاتنا القائمة على التبادل تمكننا من معرفة ما يحدث بالعالم.

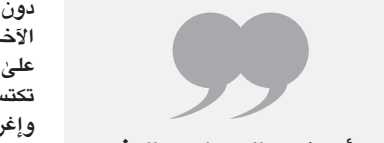
وكان عليّ، فيما بعد، أن أقيم بمصر، ثم بالعراق، من أجل تعميق معرفتي بالنصوص الكبرى المؤسسة. كما طفت كل بلدان شمال أفريقيا. واخترت أن أسافر إلى بلجيكا، ثم إلى فرنسا، مع بداية سبعينات القرن الماضي، مدفوعا بالرغبة في فهم طريقة تفكير الشبان الذي قادوا حركة 1968 بفرنسا، لأعود إلى الصحراء بعد أشهر من المعاناة. غير أن الحياة هناك ستصير محفوفة بالمخاطر، خصوصا مع إنشاء الدول الخمس على حساب الطوارق، وتوالي تخرساتها التي كانت تهدف إلى التضييق على حرية التحرك. لم يكن لي أي خيار غير الهجرة. حيث أقيم حاليا متنقلا بين فرنسا والصحراء.

سلاح المنهزم

● **الجديد:** إن متى انتهت إلى رغبتك في أن تصير كاتبًا؟

■ **محمد بن خواد:** كان ذلك في اللحظة التي أدركت فيها أن مال الإنسان الحر، أينما كان، هو الانهزام، وأن المقاومة التي قد يبديها المنهزمون، سواء على الصعيد السياسي أو الاقتصادي، تبدو مستحيلة. أما السلاح الذي يتبقى أمام المنهزم والذي يمكن أن يمنحه هامشا لتجاوز قوة المنتصرين فهو بالضبط الكتابة. وأكثر من ذلك، فإن الكتابة تشكل، على الأقل على المستوى الكالغرافي، وسيلة مدهشة، باعتبارها تتشكل من السطور والدوائر والأحرف. ولعل ذلك ما يمكن أن يمنح فضاء لمن صودر وطنه.

في مقابل ذلك، لم يسبق لي في البداية، أن فكرت في أن أصير كاتبًا. وكنت أستعمل الكتابة فقط كسجل شخصي لتدوين إحساساتي الصغيرة. ثم قررت، خلال منتصف سبعينات القرن الماضي، الكتابة من أجل التناور مع الآخر. وكنت حينها أعيش بين الصحراء وشمال أفريقيا وأوروبا، باحثا عن أرض ما وعن فضاء لا تثقله الحدود. بينما لم يكن يروقتني أي شيء. كنت مريضا ومحيطا ومحاصرا من طرف الدول ومن منطقتها الاقتصادي والسياسي الغريب والمهذّب. وكان عليّ بالتالي أن أخلق فضاء خاصا بي بعيدا عن حصارها. وإن كنت حينها غير مقتنع بجدوى الكتابة لآخر، لأنني، بكل



أن يكون الإنسان رحالا في الوقت الراهن يعني ذلك أن يملك القدرة على أن يكون في كل مكان انطلاقًا من مقامه، وأن يرى في كل وجه وفي كل ثقافة وفي كل بلد وفي غيرها من التفاصيل جزءًا من كينونته

